توفيق الحكيم في ميزان النقد الاستشراقي

بقلم : د. رشيد العناني

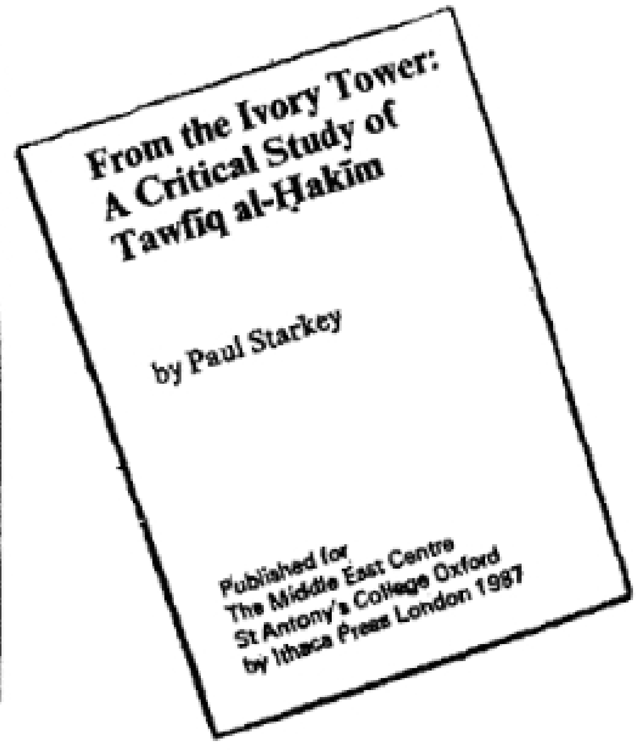
مراجعة لكتاب « من البرج العاجي : دراسة نقدية لتوفيق الحكيم »
تأليف : بول ستاركي . نشر : مطبعة إثاكا بلندن

From the I vory Tower : a Critical Study of Tawfiq al — Hakim , by Paul Starkey · (London : Lthaca Press)

يحظى الادب العربي الحديث بقدر لا بأس به من الاهتمام من قبل الدوائر الجامعية المتخصصة في الغرب · وهو اهتمام يتبدى في حركة للترجمة بطيئة وانتقائية ولكنها متواصلة ، وحركة للدرس والنقد أكثر بطئا وامعانا في الانتقاء ولكنها ملحوظة · وقديما كان اهتمام المستشرقين ينصب على درس الاسلام والادب العربي القديم وكانوا يدرسون اللغة العربية في معاهدهم الاكاديمية كما لو كانت احدى اللغات الميتة مثل اللاتينية أو اليونانية القديمة · فلما انتصف القرن الحالي وتصاعدت حركة التحرر الوطني في البلاد العربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وبرزت الى الوجود مشكلة الصراع العربي الاسرائيلي وتدفق النفط من الآبار العربية جالبا معه ثروة تفوق الخيال وتكالبا على استغلال هذه الثروة من الاقتصاد الغربي ـ جعلت كل هذه العوامل (وغيرها) الغربيين يكتشفون أن للعرب لغة حية متوثبة وأن لهم أدبا حديثا ناهضا جديرا بالدرس والنقل والنقد · وهكذا فان اهتمامهم بأدبنا المعاصر ـ الى جانب كونه اهتماما



توفيق الحكيم .. هل كان في برج عاج ؟



ادبيا اكاديميا ـ هو ايضا محاولة من جانبهم لفهم الانسان العربى الحديث حضاريا وسياسيا الفهم الضرورى للتعامل معه تعاملا ناجحا ، سواء كان هذا التعامل فى مجال الصداقة أو العداء . ولهذا فانه يتعين على القراء والباحثين العرب أن يتصدوا لما يكتب فى الغرب عن ادبهم بالرصد والترجمة والتمحيص . وليس صحيحا أن نقول اننا فى غير حاجة الى أن يدرس المستشرقون أدبنا لنا ، فبعض هذه الدراسات جيد من الناحية الموضوعية الى جانب أنها كلها ـ بجيدها ورديئها ـ مرآة ممتازة لصورة الذات لدى الآخر (أى لصورتنا كحضارة عربية لدى حضارة أخرى كثيرا ما نجد أنفسنا فى حال صدام معها) ، وهى لذلك فرصة لمطالعة الفكر العربى بعقول الآخرين ، أو للنظر الى ذواتنا من خارج ذواتنا .

وقديما اهتم عباس العقاد وغيره بتفنيد الاراء الاستشراقية فى الاسلام واهتم طه حسين وغيره بفحص ارائهم فى الادب العربى القديم وذلك حين كان اهتمام المستشرقين منصبا على الاسلام وأدب العرب الاقدمين فحسب . أما اليوم وقد أصبحوا يهتمون أيضا بادب العرب المعاصرين فجدير بنا أن نهتم باهتمامهم مشيدين بما نراه صائبا فيه ومنبهين لما نجده مجانبا للصواب .



من الكتب التي تستحق الالتفات اليها كتاب جديد من تاليف الدكتور بول ستاركي ، مدرس الادب العربي الحديث بجامعة « درام » DURHAM بشمال بريطانيا . والكتاب كان في الاصل اطروحة دكتوراه قدمت قبل عشر سنوات لجامعة اكسفورد ويصارحنا المؤلف في المقدمة ان الكتاب هو ذاته الاطروحة بلا زيادة ولانقصان فيما عدا بعض التعديلات الشكلية الطفيفة هنا وهناك .

كتاب الدكتور ستاركي ليس اول كتاب يتناول توفيق الحكيم بالدراسة في اللغة الانجليزية على اية حال فقد سبقه بنحو ثماني سنوات كتاب اخر هو « توفيق الحكيم : كاتب مصر المسرحي » من تأليف ريتشارد لونج» . الا ان كتاب ريتشارد لونج كتاب املته العاطفة والحماس اكثر من الرغبة في التقييم الموضوعي . فكاتبه معجب ايما اعجاب بالحكيم وكتاباته وفكره وهو يصارحنا في مقدمة كتابه ان دراسته تلك « ليست عملا من اعمال النقد الادبي وانما هي محاولة لوصف حياة الحكيم وكتاباته معا ..» ولذلك فاننا لا نجاوز الحق ان قلنا ان الدراسة الجديدة للدكتور ستاركي هي اول محاولة منهجية شاملة لتقييم توفيق الحكيم في اللغة الانجليزية . على انه مما يؤسف له انها على الرغم من انه يفصلها عن الكتاب السابق ما يقرب من عقد كامل وانها صدرت في اعقاب وفاة الحكيم بعد ان اكتملت اعماله اكتمالا لا اضافة له ، فانها لا تلتفت الى انتاج الحكيم في السنوات العشر الاخيرة من عمره . وهو انتاج قد لا يكون وفيرا ، الا انه جدير بالرصد والنظر .

ولنبدأ بتهنئة المستغرب د. ستاركي تهنئة حارة صادقة على الجهد الهائل الذى بذله في وضع هذا الكتاب . فانتاج الحكيم عظيم الكم ، شديد التنوع . فثم ما لا يقل عن مائة مسرحية واربع روايات وعشرات القصص القصيرة ومئات المقالات التى تتناول من الموضوعات كل شيء يرد على البال . كما أن تجاربه الشكلية والموضوعية في الفن المسرحى تتراوح تراوحا مذهلا ما بين المسرحيات الاجتماعية والمسرحيات الفلسفية ،وما بين اعادة طرح موضوعات المسرح اليوناني القديم وتجاريب مسرح العبث فى القرن العشرين . الا أن د. ستاركي استطاع ان يشق لنفسه دربا واضحا المعالم وسط هذا الدغل الحكيمى المخيف الذى ينذر المقبلين عليه ان امامهم طريقا قد لا تكون منه أوبة . وهو ينجح من خلال مثابرة لا يدركها الكلال وتحليل ثاقب لا تعوزه الجراة فى الرصد والمقارنة والاستنتاج في رسم خريطة فكرية نافعة لانتاج الحكيم واضعا يده على بعض المفاتيح الاساسية لعالم توفيق الحكيم . فعنده مثلا أن الحكيم رومانسى النزعة يميل الى تغليب العاطفة على العقل في التصدى للحياة وأن شخوصه الفنية تتعس في حياتها بقدر ما تبتعد عن هذا المثال . وعنده ايضا ان التجاذب الصراعى المتواصل بين الواقع والخيال فى الوعى البشرى هو جزء أساسى من رؤية الحكيم الفنية للحياة.

يشير المؤلف كذلك الى بعض التأثيرات الاوروبية على فكر الحكيم واسلوبه الدرامى ويخص بالذكر المسرحى البلجيكى « ماترلينك » والايطالى « بيراندللو » والالمانى

« برخت » وبعض كتاب مسرح العبث (وهو في كل هذا مسبوق من قبل النقاد العرب) ، على أنه لا يفيض في هذا ، فدراسته ليست دراسة مقارنة ، وانما هي دراسة علمية « تيمية » HEMATIC تعنى بتحليل الشواغل الموضوعية الاساسية لدى الحكيم ، كما تهتم ايضا في القسم الثاني بمشاكل الشكل الفني ومدى اصابة الحكيم أو اخفاقه في هذا الجانب ·

لا شك اذن في أن كتاب « من البرج العاجي » يمثل دراسة دسمة لا يندم القارىء على ما ينفقه فيها من وقت ، الا انها ككل دراسة جادة لا تخلو من نقاط خلافية · كما انها ايضا للاسف – وعلى عكس المألوف في الدراسات الرزينة – لا تخلو من نبو في التعبير واستعلاء في النبرة الكتابية · ونسوق هنا مثلا للتدليل على هذين المثلبين معا · يقول المؤلف في معرض التعليق على مسرحية « الملك أوديب » التي يقدم فيها الحكيم طرحا جديدا للاسطورة الاغريقية القديمة التي تناولها « سوفوكليس » في مسرحيته الشهيرة ، والتي يبرز فيها الحكيم الاثر المدمر لمعرفة الحقيقة على حياة البشر – يقول ما ترجمته « تثير هذه المسرحية مرة أخرى التساؤل عن امكانية أن ننسب بجدية صفة « مثقف » الى كاتب ينبذ الواقع ويفضل عليه عالما وهميا يقوم على انصاف الحقائق »! (ص ٨٤) ولسنا ندرى ما هو تعريف الكاتب « للمثقف » ذلك التعريف الذي لا يتسع لواحد من صانعي النهضة الادبية العربية الحديثة ، الا اننا على يقين أن تعبيره هذا غير « مثقف » بالمعنى العربي الاصيل للكلمة ، أى « غير مهذب » ! على أننا اذا اغضينا عن العجرفة الواضحة في ذلك التعليق ، لوجدنا أنه على أى حال ينطوى على خلط يؤدى الى مجافاة الحكم الصائب ، والخلط هنا واقع بين الحكيم الرجل وبين رؤياه الفنية· فهو قد يطرح رؤيا فنية مثالية رومانسية مؤداها ان الحقيقة نكبة على الانسان وان العيش في براءة الجهل بها قد يكون أجلب للسعادة وأدعى للبال الهنيء ، ونحن كقراء أو نقاد قد نواكب الفنان في رؤياه هذه او نخالفه مفضلين مبدأ العيش في حقيقة تعسة على العيش في كذبة سعيدة · الا أن هذا لا علاقة له باعتبار الفنان مفكرا مثقفا أو لا ، فالفنان يستمد صفة الفكر والثقافة ليس من محتوى رؤياه ، وانما من واقع انه قادر على صب هذه الرؤيا في قالب فني ·

وقد كنا نحب أن نغضى على سوء تعبير الكاتب ذلك باعتباره زلة قلمية ، غير أن الكتاب للاسف زاخر بأمثاله · وهكذا نرى الكاتب يحمل على الحكيم بسبب ما يسميه بـ « انعدام الروح البناءة في مسرحه الناقد للمجتمع وعزوفه الواضح عن أن يزيد على تصوير الاوضاع القائمة ··· » (ص ١٦١) وكأن الفنان الخالق في عرف د· ستاركى ينبغى عليه أن يكون مصلحا اجتماعيا أو سياسيا صاحب برنامج عملي لحل المشكلات الاجتماعية ! ونرى المؤلف ينثر في غير حرص ولا تدبر نعوتا من قبيل « سطحى » ، « سخيف » ، « ملتوى الاسلوب » ، « مغرب » على أعمال الحكيم · ونراه ينبذ جانبا مسرحيات باكملها في جملة أو جملتين (« مصير

مرصاد » على سبيل المثال !) باعتبارها دون مستوى النقد .

ويقع المؤلف في خطأ اخر حين ينعى على الحكيم أن شخصياته غالبا ما تكون « رموزا لمفاهيم عقلانية » (٢٠٦) اكثر منها شخوصا حية . ولكنه يفوته أن هذا طبيعي مألوف في النوع المسرحي الذي ينتمي اليه الكثير من أعمال الحكيم ، وهو نوع (المسرحية) ذات الاطروحة » كما تسمى في المصطلح النقدي الغربي Thesis Play ، أو « المسرحية الذهنية » كما سماها الحكيم نفسه . وهو النوع المسرحي الذي يندرج فيه على سبيل المثال كثير من أعمال الكاتب الايرلندي « جورج برنارد شو » .

ومن أمثلة التحامل لكاتبنا المستشرق على الحكيم ما يقوله في معرض التعليق على عمله المستقبلي التجريبي « بنك القلق » فهو يرى أن فكرة الكتاب ـ اى فكرة مصرف يتعامل في القلق وليس في المال هي فكرة « سخيفة » ، مع أن أمثال هذه الافكار يمتلىء بها القصص والمسرحيات الغربية وخاصة من النوع الذي اصطلح على تسميته « بالخيال العلمي » أو Science Fiction ، ولا يترفع عنه كبار الادباء ، وليس من يصفه « بالسخافة » ، أما التجريب الشكلي الذي لجأ اليه الحكيم في هذا الكتاب من ناحية مزجه بين شكلي الرواية والمسرحية مداولا فصول الكتاب بين هذا وذاك ، وسبتدعا لفظة مركبة هي « مسرواية » للاشارة الى الشكل الجديد ـ هذه التجربة لو قام بها كاتب غربي كبير ، لقامت له الدنيا

ولم تقعد تصفق وتهلل وتدعوه بالمجرب الاكبر والمبدع الاعظم والمجدد الاسبق ، ولظهر له أتباع ومريدون ومقلدون ومحاكون . لكن مستشرقنا ـ الذي هو وليد حضارة أنفق فنانوها وأنبازها القسم الاعظم من هذا القرن يجربون ذات اليمين وذات اليسار في الاشكال الفنية والقوالب الادبية ، وفي كثير من الاحيان يجربون بلا هدف سوى التجريب في حد ذاته ـ ليس لديه ما يقوله تعليقا على هذه التجربة الحكيمية سوى انها تبدو بلا هدف واضح ! ص ٢١٥ .

علاوة على ما تقدم فانه من قصور العلم بتطور الحركة المسرحية في مصر الزعم بأن الحكيم كان تأثيره على الجيل التالي من المسرحيين في أضيق الحدود . (ص ١٧٥) فالتأثير نوعان اما مباشر أو غير مباشر . فاذا بدأنا بالتأثير غير المباشر ، فانه من المنافي للمعقول أن ينكر تأثير الرجل الذي كان له فضل اكتساب الاعتراف لفن الكتابة المسرحية باعتبارها أحد الفنون الادبية المحترمة الصالحة للقراءة والدرس والتأمل وقبله كان المسرح فنا ترفيهيا أدائيا بعيدا عن الادب . كما أن التأثير غير المباشر يكون أيضا بخلق مناخ فكرى جدلي حي تثار فيه قضايا الفن والادب والنقد .. الخ وتناقش بما يوقظ واعية الاجيال الناشئة للتفكير والابداع . وهذا مجال اخر كان للحكيم فيه تأثير في غير حاجة الى اثبات . فاذا ما انتقلنا الى التأثير المباشر ، والمقصود به تأثير الافكار أو الاساليب الفنية ، فيكفي أن نذكر تأثير الحكيم في الفريد فرج ،

أحد أعلام جيل المسرحيين التالي عليه. وهو تأثير يعتز به ويقر الاستاذ فرج في غير موضع (مقدمته لمسرحيته « الزير سالم » مثلا) . وهو تأثير يبدو في استخدامه للتراث الشعبي في طرح قضايا عصرية ، وفي اهتمامه بالقضايا الفلسفية في مسرحياته وفي سلاسة الحوار عنده ، الى غير ذلك . ولكن الفريد فرج لا ذكر له اطلاقا في كتاب د . ستاركي ، وانما هناك نفي لتأثير الحكيم على الاجيال التالية !

يفتتح د . ستاركي خاتمة كتابه بطرح سؤال بصدد التقويم النهائي والشامل لتوفيق الحكيم يقول بالنص « هل حقق لنفسه مكانا دائما في تاريخ تطور الادب العربي الحديث ؟ أم أنه متحذلق ، مفكر في الوزن الخفيف مقدور لشهرته وتأثيره أن يكونا قصيرى الاجل ؟ » ص ٢٢٦ وغني عن القول أن نبرة السؤال ذاته الى جانب ما عرضناه فيما تقدم من نماذج التناول المستخف لاعمال الحكيم تفيد بمضمون الاجابة المنتظرة من كاتبنا المستشرق وخاصة أنه من وسط البحر الكتابي الزاخر الذى خلفه الحكيم لا يجد المؤلف في الختام الا رواية واحدة ومسرحيتين يسبغ عليهم من عليائه النقدى احتمال اجتياز اختبار الزمن . أما الرواية فهي « يوميات نائب في الارياف » ، وأما المسرحيتان فاحداهما « يا طالع الشجرة » والاخرى هي المسرحية الصغيرة احادية الفصل « أغنية الموت » ، وكان الله بالسر عليما !

ان الدراسة موضوع هذه المراجعة على جديتها والجهد المبذول فيها تفشل في ادراك المغزى التاريخي لاسهامات توفيق الحكيم في النهضة الادبية العربية الحديثة وهي كذلك يفوتها قراءة البعد الانساني الشامل واللازماني في الكثير من أعماله وهو بعد يضعه في مصاف الكتاب العالميين .

وتميل الدراسة كذلك الى تسخيف المضمون الفكرى لاعمال الحكيم والى التركيز على ما تراه اخفاقا في المعالجة الفنية . وينبغي أن نوضح هنا أننا في حكمنا هذا على الكتاب لا نتحدث عن جزئيات الكتاب مما قد نختلف فيه مع المؤلف او نتفق فالرأى الموضوعي المبرهن عليه حق كل ناقد . وانما نتحدث عن الروح العامة السائدة في الكتاب ، وهي روح متحاملة متعجرفة ، غضيضة عن المحاسن ، متفتحة على النقائص ، ولا يمكن تفسيرها الا على أنها ضرب من الاستعلاء الحضارى الذميم الذى يتجاوز التلميح الى التصريح حين يقول الكاتب المستشرق في سياق التعليق على مسرحية « أشواك السلام »

ـ وهي مسرحية يتناول فيها الحكيم مشكلة السلام العالمي ـ أنها تمثل « معالجة ساذجة مما يتميز به كتاب العالم الثالث ـ للمشكلات الدولية .. » ص ١٠٤ وهكذا في جملة واحدة يسم الكاتب توفيق الحكيم والعالم العربي والعالم الثالث كله بالسذاجة !

اذا كانت الدراسات الادبية الرصينة التي يكتبها الخاصة للخاصة ليست بمنجاة من روح الاستعلاء الحضارى فما أبعد اليوم الذى تزول فيه هذه الروح من المجالات الاخرى في العلاقات بين العرب والغرب !